الوالد مربي ابنه وصديقه

للأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك

المفتش الأول للغة العربية

غضب معاوية على يزيد فهجره ، فقال الأحنف : " ياأمير المؤمنين ، أولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ، ونحن لهم سماء ظليلة ، وأرض ذليلة ، وبهم نصول على كل جليلة ، فإن غضبوا فأرضهم ، وإن سألوا فأعطهم ، وإن لم يسألوا فابتدئهم ، ولا تنظر إليهم شزرا فيملوا حياتك ، ويتمنوا وفاتك " فقال معاوية : " ياغلام ، إذا رأيت يزيد فأقرئه السلام ، واحمل إليه مائتي ألف درهم ، ومائتي ثوب " . فقال ، يزيد بن معاوية ، علي به . فقال ياأبا بحر ، كيف كانت القصة . فحكاها له فشكر صنيعه وشاطره الصلة .

هذه قصة وقعت وردد صداها الأدب والتاريخ فحملاها إلينا فى هذا العصر لتكون عظة وعبرة . فلا تزال مشكلة البنين والبنات ، وحقوق الأبناء على الآباء ، ومعرفة ما للآباء قبل الأبناء بالغة حد الأشكال والتعقيد :

فانك ترى كثيرا من الآباء برمين بأبنائهم ، ساخطين عليهم وعلى زمنهم ، نافرين من بيوتهم لأجلهم ، فلا ترى الوالد إلا سادا أذنه عن سيرة بنيه ، مغمضا طرفه عن طلعتهم ، وينبت الولد فى العهد الأول كما ينبت النبات البرى لا يرى من يحنو عليه ، ولا من يدعم عقله الشادى ، وفكره الناشئ ، ويندمج فى سلك المدارس ، وهو كالفا كهة الفجة التى لا تقبل النضج ولو بعد حين .

ليت الولد يعلم أن البيت هو المدرسة الأولى للطفل ، وهو مهده الذى منه يدرج ، وعشه الذى منه يطير بعده لمجابهة الحياة بخيرها وشرها وحلوها ومرها ، وسهلها ووعرها .

فهؤلاء الآباء الذين حرموا المنزل طلعتهم وحرموا طلعة أبنائهم ليسوا جديرين بالأبوة ، بل إنهم بعيدون عن المثل الصالح للأب بعد الشرق من الغرب . وكيف يعالجون نفسا علاجها بات من المعقدات ، ونفوسهم لاتملك هذا الإصلاح فكيف تهبه (وفاقد الشئ لا يعطيه) .

يقول الأحنف فى أثناء وصيته لمعاوية وقد أحس العاقبة الوخيمة والمصيبة الكبيرة وهى نفور يزيد من والده لا الى رجعة " أولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ونحن لهم سماء ظليلة وأرض ذليلة " فاذا كان الأولاد من الخطورة بمكان ، و إذا قيست بثمار القلوب ، وعماد الظهور ، و بالأكباد التى تدب على الأرض ، فليس من الأمور الهينة أن نهمل شأنهم ، أو أن نتغفل أمرهم ، فهم خير متاع الدنيا قال تعالى « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » وقال عليه السلام " الصبى ريحانة البيت " وقال الشاعر :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض

والآباء مسئولون عن رعايتهم ، ومطالبون بتهذيبهم وهدايتهم إلى الرشد ، وتسليحهم فى هذه الحياة بما يضمن لهم الفلاح ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور لينشأوا على مكارم صالحات ، ونفوس عاليات ، ومعارف موثوق بصحتها .

لقد وضح الآن مكانة تربية الأبناء ، فلا غرابة إذا اهتم بها الناس وجعلوها موطن بحثهم ، ووجهة نظرهم ، فمنهم من يرى أن الشدّة هى خير طريق للصلاح ، وأن السيف المصلت على رأس الولد ، والسوط المعلق أمام باصريه يصلان به إلى النجاح ، فلا ابتسامة ولا مداعبة ولا لين فى القول ، بل لا تشاهد إلا قسوة وعبوسا وحياة كلها نكد وابتئاس ، والرحمة عندهم خور فى الطبيعة ، وضعف فى المنة ، ويضربون لذلك الأمثال بالعباقرة الذين دوخهم الزمان ، وصهرتهم الحوادث الصعاب ، فصمدوا لها ، وتجلدوا أمام الفقر الذى نال منهم وأعمل براثنه فيهم حتى خرجوا للناس كالمصباح المنير ، والنبراس الوهاج .

ومنهم من يرى أن تكون مع ابنك خافض الجناح ، لين الجانب هشا بشا ، لا تقع نظرته منك إلا على فم باسم ، وثغر وضاح ، ويدّعون لذلك أن اللين على عذوبته أقطع فى النفس ، وأعمل فيها من الشدّة على فظاعتها ، فربما طافت بثغر الوالد ابتسامة كان لها من الأثر الحلو الجميل ما يعجز عن تكوينه أحدّ السيوف ، وأقسى السياط .

ويرى فريق ثالث أن تجنح إلى منزلة بين المنزلتين . وتمزج له فى حكمة ورفق مزاجين فتكون معه ليّنا فى غير ضعف . شديدا من غير عنف . يراك دائما على كثب منه مقتصا منه مرة ، ومجازيا له أخرى . يفعل الفعلة فلا يلبث إلا قليلا حتى يجدك انتصفت له من نفسه بالقسطاس المستقيم . فيخرج إلى الدنيا محبا للعدالة . كارها للعدوان ، لا يريد إلا الحق ، ولو على نفسه .

الأسرة المالكة

وفى الحق إن هذا هو العدل المبين ، فلا اللين المفرط ، ولا الشدة العمياء يوصلانك إلى أمنيتك فى التربية الحكيمة .

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

وقد نجح معاوية رضى الله عنه كثيرا ، لأنه فهم هذه النظرية مع رعيته التى أنزلها منه منزلة الابن المربى . فهو يقول " لو كان بينى و بين الناس شعرة ما انقطعت أبدا ، لأنهم كانوا إذا شدّوها أرخيتها ، و إذا أرخوها شددتها " ، فلم تنقطع الشعرة . ولم ير نفسه عاجزا عن إدارة مملكته ، بل كوّن بها مملكة ذات مجد قديم ، وعز منيع .

من أجل ذلك وجب أن يُشعر الرجل نفسه الرأفة فيشمّ ولده سبعا كأنه ريحانة من رياحين الجنة . ثم يأخذه بالثقافة المحكمة سبعا أخرى يسيغها له فى أعذب الأساليب ، وأجمل الأوقات ، وأيسر التعليم ، يجيبه إذا سأل ، ويحببه إذا كره ، ويشوّقه إذا سئم ، ويروضه إذا حزن ، يخاطب عقله الصغير بما يلذ له أن يسمع ، ولا يكرهه على المنطق العالى وهو فى رداء الطفولة ، فطبيعة الطفل من طبيعة الرجل لا تقنع إلا إذا اقتنعت ، بل الأطفال أشد صراحة ، وأقوى على ألا يراءوا ، و إذا لم يفهموا فهم منصرفون عنك ، كارهون لحديثك فإذا مرن الطفل على تلك الحرية المنشودة سهل على المربى أن يقوده بألين زمام ويبث فيه ماشاء من الأخلاق ، ويصرف عنه ماشاء ، والأب الماهر هو الذى يشكل ابنه فى يده كيف شاء ، ولا تؤيسه صلابة النفس وعنادها ، وربما كان من الخير هذه الصلابة ، وهذا العناد ، فربما استتر وراءهما خلق من أخلاق النبلاء وذوى الدرجات ، فليس أكبر القواد شأنا ، ولا أعظم الفاتحين إلا من هؤلاء ، ولا أنبغ الكاشفين ، ولا أذكى المبتكرين إلا ممن قطعوا أنفاس آبائهم وأمهاتهم بالسؤال تلو السؤال ؛ بيد أن العناية الإلهية جادت عليهم بمن يشفى غلتهم ، وينقع صداها ، فأعد لكل سؤال إجابة ملائمة ، وتشجيعا يملأ النفس أملا وحبا فى الاستزادة ، فظهر نجمهم يتألق ، وسجل لهم الزمان أسمى مكان .

و إذا انتهى الأب المربى من واجبه فى المرحلة الثانية — وهى السبعة الثانية — جاء بابنه الشاب فى السبعة الثالثة ، وأخذه بآيات المودّة والإخاء ؛ فربما أخرجت تلك الأخوة رجلا يقدّر هذا الجميل ويعترف بذلك الإحسان (فطالما استعبد الإنسان إحسان) .

ومن ذا الذى يرى أباه يتخذه خليلا ثم لايلين بعد عصيان أو يذل بعد عناد ، ومن هذا البرزخ الأخير يستقبل الدنيا ويدخل فى غمار الرجال ، وهو بين رجلين : إما ظهير لوالده وعون له على الشدائد ، أوعون لمصائب الزمان على أبيه . من أجل هذا ناشد الأحنف بحكمته الغالية معاوية أن يعامل يزيد بهذا المبدأ حتى لايقلب له ظهر المجن ويشب عن الطوق .

وهذا فى السن التى يتكامل فيها الفهم ، وتحصف القناة ، ويستقيم العود .

ولقد يتبادر الى الذهن أن يعمد الوالد الى فوارق الأبوة والبنوة فيمحوها ويترك الابن والفتاة معه بلا كلفة ولا تقدير ، بيد أنه مما استقر فى الأذهان ، ومما عنيت به الشرائع السماوية والوضعية ، أن الابن رعية أبيه ، وكل راع مسئول عن رعيته ؛ فان سار بها فى طريق الشر كان ذلك عند الناس دليل خرقة وحماقة ، وكان جزاؤه عند الله جزاء من اؤتمن فخان .

وإن هو أوردها طريق الخير دل ذلك على حزمه وكياسته وكان ثوابه عند الله ثواب الولاة العادلين .

محمد أحمد جاد المولى